المشرق

مجلة كاثوليكية شرقية

تبحث في العلم والادب والفن

تصدر ستة اجزاء في السنة تتؤلف مجلّدًا ذا ٨٠٠ صفحة
مزدانًا بالصور والخرائط والفهارس الواسعة

بادارة آباء جامعة القديس يوسف

○

السنة التاسعة والخمسون

▽

المطبعة الكاثوليكية
بيروت – لبنان
١٩٦٥

المشرق

السنة التاسعة والخمسون

كانون ٢ – شباط ١٩٦٥

هل كان قديماً بباب كيسان بدمشق

كنيسة لمار بولس

بقلم الاب اغناطيوس عبده خليفه اليسوعي

اتفقت لنا في العام الماضي زيارة دمشق لدرس بعض مخطوطات دار الكتب الظاهرية فيها فاستوقف نظرنا ما قرأناه في تاريخ ابن عساكر من تراجم عيسى بن مريم ووالدته والحواريين وبعض الآباء والأنبياء. وراق لنا جداً ما جاء فيها من الآراء والاقوال الاسلامية المدهشة التي قلّ من أطلع عليها من الطلاب والعلماء المسيحيين واثار فينا ما وقفنا عليه من اخبار بولس الرسول الشوق الى زيارة الاماكن المشهورة به بدمشق وفي مقدمتها المعبد الذي نسب اليه ووُضع اول حجر منه سنة ١٩٢٤ في مكان الباب القبلي بمقربة من الباب الشرقي وهو الباب المنسوب لكيسان مولى الخليفة معاوية اول الامويين.

وكنا نعلم صحة ما نُسب الى مار بولس من الكنائس والاديار بدمشق وضواحيها وقوضتها كنيسته القديمة في محلة حجر الذهب في جوار البيمارستان النوري وهي التي ذكرت في جملة الكنائس التي صولح عليها النصارى بعد الفتح وكنيسته في التلّ من مقبرة النصارى في الموضع الذي اشتهر برؤياه حين قدم من اورشليم وكنيسته في ديري بطرس وبولس في المحلة المعروفة بالديرين خارج باب الفراديس التي ذكرها جرير في شعره وكنيسته في ديره بقرية سكا بالقرب من داريا. وهذه الكنائس كلها قد بادت كما باد غيرها ولم يبلغنا عنها اثر ولا خبر.

وكنا نجهل كل الجهل وجود كنيسة له قديمة في سور باب كيسان فدللنا على الكتاب الذي نشره فيه سنة ١٩٤٤ حضرة الارشمندريت يوسف نصرالله من الملحقين بالآباء البولسيين الافاضل في حريصا وطبعته مطبعتهم باللغة الفرنسية وعنوانه Souvenirs de Saint Paul اي ذكريات مار بولس فاقبلنا على تصفحه بغاية الرغبة والشوق واول ما عجبنا منه كثرة ما حشده في مقدمته من المصادر المختلفة التي قال انه استند اليها في تأييد دعواه وعددنا منها عشر صفحات كاملة بحروف دقيقة اشار فيها الى معظم الآثار النصرانية التي تناولت اخبار بولس ورجونا امام هذا العدد العديد من الحجج ان نجد بينها دليلاً قاطعاً لقيام كنيسة مار بولس في مكانها اليوم في سور باب كيسان فخاب املنا ولم نظفر بشاهد واحد يصحح زعمه. فلم تعداد هذه المراجع؟ ومما رجح ذلك عندنا انه في كلامه على النافذة التي دُلّي منها بولس ملاء صفحتين سرد فيهما اسماء زوار دمشق الذين شهدوا بمكانها في الباب وساق اسماء رحلهم وكتبهم بالتفصيل واحداً اثر الآخر على غير حاجة الى شيء منها مطلقاً لاجماع التقاليد القديمة والحديثة على وجود النافذة فوق باب كيسان وعدم ورود خلاف فيها فأيّ داعٍ دعاه الى هذا التطول الممل.

ومن الاعلام التي ماحك المؤلّف في ضبطها وترجمتها نسب المقدسي مؤلف كتاب احسن التقاسيم فرسمه بالفرنسية بضم الميم وتشديد الدال المفتوحة Mokaddasi كأنه نسبة الى البيت المقدّس كما توهمه كثيرون من علماء الفرنج متابعة للعالم الهولندي دي غوبي بدلاً من المَقْدِسي نسبة الى بيت المَقْدِس بفتح الميم وكسر الدال وهو اللفظ المشهور الباقي الى اليوم بين الأسر المسلمة والمسيحية نص عليه السمعاني من علماء القرن الرابع للهجرة في كتاب الانساب.

على ان هذه الاغلاط كلّها واشباهها الكثيرة لا تعد شيئاً في جنب تلك التي جعلت المؤلّف يعتقد ان كلمة الكنيسة فيها لا تعني الا بيعة النصارى وقد فاته ان بعض اللغويين كالثعالبي في فقه اللغة يخصّون الكنيسة باليهود والبيعة بالنصارى وهو ما يدل على اشتهار الكنيسة بتعبّد اليهود اكثر من اشتهارها ببيعة النصارى . ولكن معجمات اللغة تنصّ على ان الكنيسة تطلق بالسواء على « متعبد النصارى واليهود » خلافاً لليوم حيث غلب الاصطلاح ان يقال كنيس اليهود وكنيسة النصارى . وفي كتب التاريخ امثال عديدة لاستعمال لفظ الكنيسة في تعيين معبد اليهود واقدم هذه الامثال ذكر كنيسة اليهود في كتاب الصلح بعد فتح دمشق وقد اوهم المؤلف انها بيعة مسيحية لاعتقاده انها سمّيت كذلك لوقوعها في محلة اليهود (كذا) ولم يفقه ان الكنائس المسيحية لا تلقّب الا باسماء القديسين حيثما كانت . وما كان اجدر هذه الكنيسة التي وضعها غلطاً في سور باب كيسان ان تسمّى باسم مار بولس لجوارها للنافذة التي هرب منها ولكنه لما ضاق ذرعاً ان يجد اقل اثر قديم لذكرى بولس في باب كيسان عمد الى ادنى كنيسة وجدها في داخله ونقلها الى خارجه ورسم عليها خطّ الصليب وعمّدها نصرانية وتلا عليها قرحاً الآية القرآنية : « نصر من الله وفتح قريب » دون ان يبالي بما قرأه من وصفها اليهودي في تاريخ ابن كثير وغيره من المؤرخين بالاجماع .

وفي هذه الكنيسة اليهودية حكى النويري[1] وابن كثير ان في سنة ١٢٧٠/٦٦٩ عمل الشيخ خضر الكردي سماعاً ورقص واصحابه ونهب ما فيها من الامتعة والآلات وعملها مسجداً وبقيت على ذلك اياماً . قال ابن كثير : « ثم اعيدت الى اليهود »[2] ولم يفطن حضرة المؤلّف الى انها لو كانت مسيحية لقيل لا محالة : أعيدت الى النصارى .

ولن نرضى بنسبة المحال لابن كثير بل علينا ان لا نتناول ايضاً ابن عساكر فنجعله يقول بالتأكيد ان الكنيسة أخذت من النصارى في فتح دمشق وجعلت مسجداً[3] وقد فلّينا مجلد ابن عساكر سطراً سطراً وقرأناه حرفاً حرفاً فلم نجد فيه هذا القول فمن اين اتى به المؤلّف وكيف اجترأ على اختلاقه .

---

١) ورد في المجلد من نهاية الارب رقم ١٥٨٧ في خزانة باريس ان السنة كانت ٦٩٦ / ١٢٩٧ غلطاً بدلاً من ٦٦٩

٢) البداية والنهاية ١٣ : ٢٦

٣) Souvenirs de S. Paul 59-60.

في رأينا ان حضرته خلط بين كنيستين كانتا لليهود وجعلهما واحدة وهي التي حوّلها المسلمون الى مسجد عُرف بمسجد الشهروزوري وكان كنتا الكنيستين في حارة اليهود داخل باب كيسان خلافاً لما يُفهم من تحديده ان الكنيسة كانت في سور باب كيسان بالقرب من النافذة ليتيسر له ايجاد ذكرى لمار بولس وكل من ألّف مطالعة مؤرخي دمشق يعلم انهم كانوا دائماً يقتصرون من تخطيط الأبنية قيها على القول « داخل الباب الفلاني او خارجه » دون تعيين القرب او البعد . ويستفاد من مراجعة ابن عساكر وابن شداد وابن شاكر الكتبي وابن كثير ان كنيسة اليهود التي ذكرت في كتاب الصلح كانت داخل المدينة بالقرب من الخَيْر اي بستان القط اليوم غير بعيدة عن كنيسة مريم . ولذلك اورد ابن عساكر اسمها بعد كنيسة مريم وجعلها ثامنة الكنائس الخمس عشرة التي صولح عليها بعد الفتح اهل الذمة اي النصارى واليهود . وهذه الكنيسة هي التي كانت باقية لليهود في زمان ابن شاكر وقد عين ابن كثير موقعها فقال : « كنيسة اليهود التي بايديهم اليوم في حارتهم ومحلها معروف بالقرب من الخَيْر (وفي المطبوع غلطاً الجبر) وتسميه الناس اليوم بستان القط وكانت ثم كنيسة في درب الباعة (وفي المطبوع البلاعة) لم تكن داخلة في العهد فهدمت فيما بعد وجعل مكانها المسجد المعروف اليوم بمسجد الشهروزوري والناس اليوم يقولون درب الشاوري .

وكانت هذه الكنيسة الجامع « قبلي درب الحجر داخل باب كيسان » ولما خرب الجامع وجدده نائب السلطنة سيف الدين متكلي بغا سنة ٧٦٥/ ١٣٦٣–١٣٦٤ قال ابن كثير « ركب ودخل البلد من باب كيسان وانعطف على حارة اليهود حتى انتهى الى الجامع » .

ومن هذه الشهادات كلها يتضح جيداً ان كلتا الكنيستين كانتا لليهود ولم تكن احداهما ملاصقة لباب كيسان . ومع ذلك لم يتحرج المؤلف من نسبة الواحدة التي عرفها منهما الى النصارى ونقلها من الداخل الى خارج باب كيسان ليقيم منها حسب غرضه ذكرى مار بولس ويبني على وجودها تحت النافذة قاعدة كتابه وحجته الوحيدة .